قصة قصيرة

قصة: حقيبة من الحنين

د. محمد أجمل *

لم يكن خليل يعرف أن لحظة الوداع يمكن أن تكون ثقيلة إلى هذا الحد. كان في الثانية عشرة من عمره عندما وقف عند عتبة البيت, يحمل حقيبة بنية اللون تكاد تكون أكبر من جسده الصغير. كان أبوه قد اشتراها له من السوق قبل أيام, وقال له وهو يضعها أمامه:

– ستحتاج إلى حقيبة قوية يا بني, فأنت ذاهب لطلب العلم.

ضحك خليل, وراح يفتح الحقيبة ويغلقها مرات عديدة, ويتخيل نفسه مسافرًا إلى مدينة كبيرة, يركب القطار, ويدخل مدرسة واسعة, ويلتقي أصدقاء جددًا. لم يكن يعرف أن الحقيبة التي ملأتها أمه بالملابس والكتب ستعود إليه بعد سنوات محمّلة بشيء آخر لا يمكن وضعه في ميزان أو قياسه بالكيلوغرامات؛ كانت محمّلة بالحنين .في ذلك الصباح, كانت أمه تتحرك في البيت بصمت.

وضعت في حقيبته قميصين, وثلاثة سراويل, ومعطفًا شتويًا, ومنشفة صغيرة, وعلبة من الأرز المشوي, وبعض الحلوى التي يحبها .ثم أخرجت مصحفًا صغيرًا, وقبّلته, ووضعته في الجيب الداخلي للحقيبة.

قال خليل:

–أمي, لماذا وضعتِ كل هذه الأشياء؟ المدرسة توفر لنا الطعام والملابس.

قالت:

---

* أستاذ مساعد بمركز الدراسات العربية والإفريقية, جامعة جواهر لال نهرو – نيودلهي.

-أعلم.

-إذن؟

ابتسمت وقالت:

-لأن الأم لا تستطيع أن تسافر مع ابنها, فتحاول أن تضع شيئًا منها في حقيبته.

لم يفهم خليل معنى كلامها, لكن تلك الجملة بقيت في ذاكرته سنوات طويلة.

كان قرار سفره قد جاء فجأة .فقد حصل على منحة للدراسة في المدرسة. وكان أبوه فلاحًا يحرث أرضه الصغيرة ويغرس ويزرع ويحصد, ودخله بالكاد يكفي الأسرة؛ ولذلك رأى في المنحة فرصة عظيمة لابنه.

قال له ذات مساء: -العلم يا خليل لا يسأل عن فقر الإنسان, وإنما يسأل عن عزيمته.

ثم أضاف: -ربما تتعب في البداية, وربما تشتاق إلينا, لكنك إذا صبرت فسوف تُفتح لك أبواب كثيرة.

سأل خليل: -وهل سأعود في كل عطلة؟

خفض الأب عينيه. كان يعرف أن المسافة بعيدة, وأن تكاليف السفر ليست يسيرة.

قال: -سنحاول.

كانت كلمة «سنحاول» أول ما جعله يشعر بأن الغربة لن تكون رحلة قصيرة.

وصل خليل إلى محطة القطار في الصباح الباكر .كانت أمه قد أعدت له خبزًا مزيّتًا بكمية تكفيه طوال سفره, مع أنها كانت تعرف أنه سيحصل على الطعام في الطريق .وقبل أن يصعد إلى القطار, أمسك بيدها وقال:

-يا أمي...

-نعم يا روح قلبي؟

-هل ستبكين عندما أذهب؟

ضحكت وهي تمسح عينيها:

-أنا؟ لا!

-حقًا؟

-طبعًا.

لكنها ما إن أدار وجهه حتى انحدرت دمعة على خدها.

لم يرها.

أما أبوه فكان يحاول أن يبدو قويًا.

قال:

-تذكّر يا بني, أنت لا تذهب لأننا نريد أن نتخلص منك. ضحك خليل:

-أعرف يا أبي.

-أنت تذهب لأننا نريد أن تعود يومًا وأنت أقوى وأعلم. ركب خليل القطار, وظل واقفًا عند الباب حتى تحرك.

لوّح بيده.

كانت أمه تلوّح له بكلتا يديها, وكان أبوه يرفع يده من غير أن يتكلم .بدأت المحطة تبتعد, وبدأت الوجوه تصغر, ثم اختفى كل شيء .جلس خليل قرب النافذة. كان سعيدًا في البداية. أخرج الحلوى من حقيبته وفتحها, ثم توقف .كانت أمه قد كتبت على ورقة صغيرة:

"كُل جيدًا، ونَم مبكرًا، ولا تنسَ أن تدعو لنا ".ضحك وقال في نفسه"كأنني ذاهب إلى آخر الدنيا "!لكنه، بعد ساعات، عندما أظلمت السماء، اكتشف أن الدنيا بالفعل يمكن أن تكون واسعة جدًا .كانت المدينة مختلفة عن قريته في كل شيء؛ الأبنية مرتفعة، والشوارع مزدحمة، والسيارات لا تتوقف، والناس يتحدثون بسرعة .أما المدرسة فكانت ضخمة، لها بوابة حديدية كبيرة، وساحة واسعة، ومبنى طويل تتوزع فيه الفصول والغرف .رافقه المشرف إلى غرفته. كانت الغرفة تضم أربعة أسرّة.

قال مشرف السكن:

–هذا سريرك.

وضع خليل حقيبته، ثم نظر حوله وسأ – "متى يمكنني الاتصال بأهلي"؟

–مساء الجمعة.

اتسعت عيناه:

–الجمعة؟

–نعم.

خرج المشرف .جلس خليل على سريره، وأخرج صورة أسرته التي وضعتها أمه في جيب الحقيبة. نظر إليها طويلًا، ثم وضعها تحت وسادته .في تلك الليلة لم ينم . كان يسمع أصوات الطلاب في الممر، وضحكاتهم، وأصوات الأبواب، أما هو فكان يتذكر صوت أمه وهي توقظه لصلاة الفجر .كان يتذكر رائحة الخبز، وصوت أبيه، وضحكة أخته الصغيرة. وفجأة شعر أن الأشياء الصغيرة التي كان يعدّها عادية أصبحت أغلى من كل شيء.

مر الأسبوع الأول ببطء، ثم الثاني، ثم الثالث.

وبدأ خليل يتعلم كيف يعيش بعيدًا عن البيت. كان يستيقظ مبكرًا، ويذهب إلى دروسه، ويأكل في مطبخ المدرسة، ويقضي وقتًا في المكتبة .وبدأ يتعرف إلى زملائه. كان من بينهم فتى اسمه سهيل، اقترب منه ذات يوم وقال:

–لماذا تجلس وحدك دائمًا؟

أجاب خليل:

–لا أعرف أحدًا.

قال سهيل مبتسمًا:

–الآن تعرفني.

ابتسم خليل، وجلس سهيل بجانبه.

–من أين أنت؟

ذكر خليل اسم قريته.

قال سهيل:

–لم أسمع بها من قبل.

–طبيعي.

–هل هي جميلة؟

ابتسم خليل للمرة الأولى بحماس وقال:

–جميلة جدًا.

ثم بدأ يتحدث عنها؛ عن الحقول، وعن نهر المهاناندا، وعن شجرتي المانجو والجوافة في فناء منزله، وعن السوق القديم، وعن الأطفال الذين كانوا يلعبون

الكرة معه في الشارع، وعن أمه التي تطهو – في رأيه – أفضل طعام في العالم .

ظل يتحدث، وسهيل يستمع، ثم قال:

–يبدو أنك تشتاق إليها كثيرًا .سكت خليل، ثم قال:

–جدًا.

في أول اتصال مع أمه، حاول أن يبدو قويًا – .السلام عليكم يا أمي.

جاءه صوتها من الطرف الآخر:

–وعليكم السلام يا حبيبي! يا قطعة قلبي، كيف أنت؟

–بخير.

–هل أكلت؟

–نعم.

–هل تنام جيدًا؟

–نعم.

–هل أنت سعيد؟

تردد، ثم قال:

–نعم.

صمتت أمه قليلًا، ثم قالت:

–صوتك لا يشبه صوتك.

–ماذا تقصدين؟

–كأنك تكبر بسرعة.

لم يستطع الرد.

ثم سمع أخته الصغيرة تصرخ:

–يا خليل! خليل! أريد أن أكلمك!

أخذت الهاتف وقالت:

–متى ستعود؟

قال:

–قريبًا.

–غدًا؟

ضحك خليل:

–لا.

–بعد غد؟

–لا.

–إذن متى؟

سكت, ثم قال:

–عندما تنتهي الدراسة.

قالت:

–هذا بعيد جدًا.

ضحك, لكن بعد انتهاء المكالمة وضع الهاتف على الطاولة, وأخفى وجهه في الوسادة, وبكى. بكى بصمت حتى لا يسمعه أحد .مرت الأشهر .بدأ خليل يتفوق في دراسته. كان يحب اللغة العربية والتاريخ والأدب, وكان أستاذ اللغة العربية يلاحظ اهتمامه الكبير.

قال له ذات يوم:

–لديك قدرة جميلة على التعبير.

سأل خليل:

–هل هذا مهم؟

قال الأستاذ:

–جدًا. الكلمات تستطيع أن تحمل ما لا تستطيع الأيدي حمله.

تذكر خليل حقيبته, وفكر في كلمات أمه.

وفي تلك الليلة كتب أول نص في دفتره:

"أشتاق إلى بيتنا".

ثم كتب:

"أشتاق إلى الباب الخشبي, وإلى شجرة الجوافة, وإلى صوت أمي, وإلى أبي عندما يعود متعبًا, وإلى أختي وهي تطرق باب غرفتي -"ثم توقف .وأدرك أن الحنين يمكن أن يتحول إلى كلمات.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يكتب. كلما اشتاق, كتب. وكلما شعر بالوحدة, كتب. وكلما جاءه الليل بثقله, فتح دفتره .وذات مساء, تلقى رسالة من أبيه.

كتب فيها:

"يا خليل, لا تقلق علينا, نحن بخير. أمك تسأل عنك كل يوم, وأختك تحفظ جدول مواعيد اتصالك أكثر مما تحفظ دروسها. أما أنا فأفتخر بك كلما أخبرت أحدًا أنك تدرس بعيدًا عن البيت." -ثم أضاف:

"تذكر يا بني أن الغربة لا تعني أن تنسى وطنك, بل أن تتعلم كيف تحمله معك ."

قرأ خليل الرسالة مرات عديدة، ثم وضعها داخل الدفتر .لكن الحنين لم يكن دائمًا لطيفًا.

في شتاء ذلك العام مرض خليل، وارتفعت حرارته، ولم يكن في الغرفة أحد .اتصل المشرف بالطبيب، وأعطاه الدواء .وفي الليل استيقظ خليل ووجد نفسه ينادي:

-أمي!

فتح عينيه. لم تكن أمه هناك. كان السقف الأبيض فوقه، والغرفة مظلمة.

فهم أنه كان يحلم .مد يده إلى هاتفه.

كانت الساعة الثالثة صباحًا. تردد في الاتصال، ثم قال لنفسه:

"ربما تكون أمي نائمة -".لكنه اتصل.

ردت بعد لحظات:

-خليل؟

كان صوتها ناعمًا.

-نعم يا أمي.

-ماذا حدث؟

-لا شيء.

-لماذا اتصلت في هذا الوقت؟

سكت.

ثم قال:

-أردت أن أسمع صوتك.

ساد الصمت.

ثم قالت:

–أنا هنا يا بني.

كانت جملة بسيطة, لكنها جعلته يشعر بأنه لم يعد وحده.

مر عام, ثم عام آخر.

كبر خليل وتغيرت ملامحه. لم يعد الطفل الذي يخاف النوم في غرفة غريبة, لكنه ظل يحتفظ بصورة أسرته تحت وسادته .وفي كل مرة يعود فيها الحنين, كان يفتح حقيبته القديمة.

كانت الحقيبة قد بدأت تهترئ, وأصبح أحد مقابضها ضعيفًا, لكن خليل رفض أن يستبدلها.

قال له سهيل:

–اشترِ حقيبة جديدة, فهذه قديمة.

قال خليل:

–هذه ما تزال جيدة.

–إنها قديمة.

–وأنا أحب الأشياء القديمة.

–لماذا؟

ابتسم:

–لأنها تعرف قصتي.

وفي السنة الأخيرة من دراسته, اقترب موعد التخرج.

كان خليل يشعر بمزيج غريب من الفرح والخوف؛ فرح لأنه سيعود إلى البيت، وخوف لأن الغربة التي اعتادها ستنتهي.

قال له سهيل:

–كنت دائمًا تحلم بالعودة.

–نعم.

–فلماذا تبدو حزينًا؟

قال:

–لأنني سأفتقدكم أيضًا.

ضحك سهيل:

–الآن فهمت.

–ماذا؟

–الغربة أصبحت وطنًا صغيرًا.

فكر خليل في كلامه، وكان صحيحًا. لقد صنع في الغربة ذكريات جديدة، وتعلم، وكبر، وصار له أصدقاء، وأصبح له مكان آخر يحبه .لكنه عرف أيضًا أن الإنسان يستطيع أن يحب أكثر من مكان، من غير أن يقل حب المكان الأول ظهرت النتائج، وكان خليل الأول على دفعته .استدعاه مدير المدرسة وقال له:

–نحن فخورون بك.

شكره خليل، ثم عاد إلى غرفته.

فتح حقيبته، وأخرج الورقة القديمة التي كتبتها أمه. كانت الكلمات قد بهتت قليلًا:

"كُل جيدًا، ونَم مبكرًا، ولا تنسَ أن تدعو لنا"

ابتسم، ثم بكى.

في طريق العودة، كان القطار يسير ببطء في نظره.

جلس قرب النافذة كما فعل قبل سنوات، لكن هذه المرة كان يشعر بشيء مختلف.

لم يعد طفلًا خائفًا من المجهول؛ كان شابًا يحمل شهادة وكتبًا وتجارب.

وعندما بدأت الحقول تظهر، تسارعت دقات قلبه.

ثم رأى شجرة التوت من بعيد. لم تكن كبيرة كما يتذكرها، أو ربما كان هو الذي كبر.

وصل إلى المحطة.

كان أبوه ينتظره.

وحين نزل خليل، لم يستطع أن يمنع نفسه من الركض. احتضن أباه.

قال الأب:

–كبرت يا بني.

أجاب خليل:

–وأنتم كبرتم من غيري.

ثم ظهرت أمه.

لم يقل شيئًا. ركض إليها، فاحتضنته طويلًا وبكت.

قالت:

–كنت أعرف أنك ستعود.

قال:

–وأنا كنت أعرف أنكم ستنتظرون.

في البيت، جلس خليل في الفناء. كانت شجرة التوت أمامه، وسمع صوت الدجاج فضحك.

قالت أخته:

–لماذا تضحك؟

قال:

–لأنني اشتقت حتى إلى هذا الصوت.

ضحكت، ثم قالت:

–هل ستسافر مرة أخرى؟

نظر خليل إلى أمه. كانت تعرف أن السؤال ليس بسيطًا.

قال:

–ربما.

خفضت الأم رأسها.

اقترب خليل منها وقال:

–لكنني هذه المرة أعرف الطريق.

قالت:

–وماذا لو اشتقت؟

ابتسم:

–سأكتب.

–وماذا لو اشتقت أكثر؟

–سأتصل.

–وماذا لو لم يكفِ ذلك؟

صمت خليل لحظة, ثم قال:

–سأعود.

مرت سنوات .واصل خليل تعليمه, ثم أصبح باحثًا وأستاذًا. سافر إلى بلدان مختلفة, وألقى محاضرات, وكتب أبحاثًا .تعرف إلى أناس من ثقافات متعددة, وفي كل مدينة كان يستأجر فيها غرفة, كان يضع صورة أسرته على مكتبه .أما الحقيبة القديمة فكانت ترافقه دائمًا.

وفي أحد الأيام سأله طالب صغير:

–أستاذ خليل, لماذا تحتفظ بهذه الحقيبة؟ إنها قديمة جدًا.

فتح خليل الحقيبة. كانت فارغة إلا من دفتر قديم .أخرج الدفتر وفتحه, فوجد أول جملة كتبها عندما كان طفلًا:

"أشتاق إلى بيتنا".

ابتسم وقال للطالب:

–هل تعرف ما أصعب شيء في الغربة؟

قال الطفل:

–ماذا؟

–أن تكتشف قيمة الأشياء التي لم تكن تلاحظها عندما كانت قريبة منك.

ثم أضاف:

–في الغربة تعلمت أن البيت ليس جدرانًا, والوطن ليس خريطة.

-فما الوطن إذن؟

نظر خليل إلى صورة أمه وقال:

-الوطن هو المكان الذي إذا أغمضت عينيك استطعت أن تسمع فيه صوت من تحب.

سكت الطفل، ثم سأل:

-وهل ما زلت تشتاق؟

ابتسم خليل:

-نعم.

-رغم أنك أصبحت كبيرًا؟

ضحك:

-الحنين لا يكبر معنا، بل يكبر فينا.

ثم أغلق الحقيبة.

في آخر الليل، عاد خليل إلى غرفته وجلس قرب النافذة. كان المطر ينزل بهدوء.

فتح هاتفه واتصل بأمه.

ردت بعد لحظات:

-خليل؟

-نعم يا أمي، ألم تنامي بعد؟

-وأنت لم تعد طفلًا!

قال:

-اشتقت إليك.

ضحكت.

قال:

-يبدو أن الطفل الذي سافر بحقيبته القديمة ما زال يعيش في داخلي.

سكتت أمه, ثم قالت:

-وهل ما زالت الحقيبة معك؟

نظر إليها. كانت بجانب مكتبه.

قال:

-نعم.

-لماذا لم تتخلص منها؟

ابتسم:

-لأنها تحمل أول رحلة لي إلى العالم.

ثم صمت قليلًا وقال:

-لكنها لم تحملني وحدي.

-ماذا حملت؟

أجاب:

-حملت شيئًا منك.

-ماذا؟

قال:

-دعاءك.

سكتت الأم طويلًا, ثم قالت:

–حفظك الله يا بني.

أغلق خليل الهاتف، وظل ينظر إلى الحقيبة.

ثم فتحها.

أخرج المصحف الصغير الذي وضعته أمه فيها قبل سنوات طويلة.

كان لا يزال هناك.

مرر يده على غلافه، وتذكر صباح الرحيل، ويدي أمه، ووجه أبيه، والقطار، والدموع، والخوف، والمدينة البعيدة، والليالي الطويلة، والمرض، والكتب، والأصدقاء، والنجاح، والعودة.

أدرك عندها أن الرحلة لم تكن رحلة من قرية إلى مدينة .كانت رحلة من الطفولة إلى النضج، ومن الخوف إلى الثقة، ومن الحنين إلى الفهم .فقد تعلم أن الغربة ليست دائمًا مكانًا بعيدًا، وأن الوطن ليس دائمًا المكان الذي نعيش فيه.

أحيانًا يكون الوطن صوتًا يأتيك عبر الهاتف في منتصف الليل، وأحيانًا يكون رسالة محفوظة في دفتر، وأحيانًا يكون صورة قديمة، وأحيانًا يكون دعاء أم لا يسمعه أحد، لكنه يصل إلى السماء.

أما خليل فقد ظل يسافر.

وكلما حمل حقيبته إلى محطة جديدة، كان يضع فيها ملابسه وكتبه، ثم يترك مكانًا صغيرًا لشيء لا يُرى: للوطن، وللحنين.

ذلك الطفل الذي غادر ذات صباح وهو يظن أنه ذاهب ليتعلم كيف يعيش بعيدًا عن بيته، اكتشف بعد سنوات أنه كان يتعلم شيئًا أعظم :كيف يحمل الإنسان بيته معه أينما ذهب.

وفي كل مرة كان القطار يتحرك، كان خليل ينظر من النافذة، ويبتسم، ويقول في سره:

"سأسافر، ولكنني لن أضيع... فما دام الوطن في القلب، فلا توجد غربة كاملة."

..... ***** .....